بعض المخاطر التي يمكن ان تنشأ ـ ان يساعد في جلاء وتوضيح بعض المفاهيم الضرورية التي يصعب الاستغناء عن مناقشتها، ولا سيما تلك التي ساهم التحليل النظري للاستشراق في جعلها ترتفع الى مستوى المسلمات؛ وهي المفاهيم التي يمكن ان نجدها متفشية، بشكل او بآخر، في كتابات عدد من المفكرين العرب الذين حاولوا تلمس ابعاد هذه المشكلة.

يطرح بيرك سؤاله السابق في اطار صياغة تاريخية وثقافية تنتمي الى مستوى ومشروع آخر مغاير، أي ضمن ذلك الاطار العريض الاشمل الذي شاعت تسميته بـ «الاستشراق». وبغض النظر عن طبيعة التقسيمات الموجودة التي يمكن ـ مع ذلك ـ الموافقة عليها، داخل هذا الاطار[٣]؛ غير ان الامر الجوهري يظل في ان طبيعة السؤال، بحد ذاته، تعكس استمراراً، من الناحية النظرية والتاريخية، لتلك الشواغل الثقافية والايديولوجية التي ميزت تاريخ الاستشراق خلال القرون القليلة الماضية. اذ ثمة بنية مغايرة، وتاريخ مغاير لمجتمع، كانت الاحداث والظواهر المنبثقة عنه موضع تساؤل باستمرار. وليس من اهداف هذه الدراسة الغوص في هذا الموضوع المعقد والمتشابك بالطبع؛ وانما الهدف كشف النقاب عن جانب من تلك الملابسات التي اثارتها تلك الشواغل الثقافية والايديولوجية، في كتابات عدد من المثقفين والمنظرين العرب، والاسرائيلين ايضاً، الذين حاولوا دراسة هذه الظاهرة[٤].

يقول احد الباحثين العرب، في محاولة العثور على جواب عن السؤال السابق: «... ومن الخصائص الهامة التي يجب تسجيلها لهذه الطبقة [المتوسطة الصغيرة] هي انها، وان كانت اصيلة، منسجمة الجذور محلياً وعربياً، الا انها لم تكن طبقة متماسكة موحدة على امتداد مجتمعات الشرق العربي المتعددة والمتباينة. لقد كانت هناك فواصل عديدة تؤثر على وحدتها القومية وانسجامها الطبقي الذاتي. فالانقسامات ' الفئوية ' المتداخلة، المتشابكة، حولتها، في حالات كثيرة، الى شرائح تتصارع فيما بينها داخل معسكر الثورة البرجوازية ذاته»[٥]. ويضيف الباحث، مستخلصاً مما سبق: «ولربما مكنتنا ملاحظتنا لهذه الخاصية في البرجوازية العربية الصغيرة من تفسير وتفهم كثرة الانقسامات في الاحزاب القومية والحركة الوحدوية من الداخل ـ موضوعياً (دون ان نرجع ذلك الى مثالب اخلاقية وانانيات شخصية دائماً) ـ حيث يتحول التنظيم الواحد الى اجنحة، والاجنحة الى فروع وشلل، وتضيع الفروق الفكرية في غمرة تعدد التجمعات ' الفئوية ' ـ الصغيرة المنقسمة، باستمرار، على ذاتها، ونواجه بعدة ' عقائديات ' ضمن اتجاه سياسي ـ طبقي ـ فكري واحد، ومن تحت الرداء التنظيمي الجديد، برغم فكرته الثورية التقدمية، تبرز بوجهها مع استمرار تشقق المكونات الوراثية القديمة في مجتمع الشرق الادنى، من محلية، واقليمية، وعائلية عشائرية، وطائفية مذهبية»[٦].

لعلنا لا نتمكن من العثور على نموذج مشتمل على الوضوح لبحث هذه المسألة اكثر مما يقدمه لنا هذا النص. وللوهلة الاولى، يبدو التفسير الذي يقدمه الكاتب، مقنعاً. فهو، وان كان يتحدث بلغة ايديولوجية، الا انه يحاذر الانخراط في الطريقة التقليدية الدارجة. انه لا يقدم حكماً نهائياً لادانة طرف على حساب طرف آخر، بل انه يتخذ موقف الحياد تجاه الجميع. فاذا كانت «الأردية الليبرالية» في الفترة السابقة قشوراً على جسم قديم، فان «الاردية الراديكالية ـ الاشتراكية» لم تكن اكثر انسجاماً وتجذراً على «الجسم القديم ذاته»[٧]. لماذا؟ «لأن الثابت في هذا الجسم هو مكوناته القديمة المتوارثة، التي تتوافق، في كل مرحلة، مع مكوّنات او تحولات جديدة وافدة»[٨].

هكذا، اذاً، يخلص الكاتب الى ان المشكلة لا تكمن في «العقائديات»، او الايديولوجيا التي تطرحها هذه الحركة او تلك، وانما تكمن في «الجسم القديم» ذاته. والثابت في هذا الجسم هو «المكونات